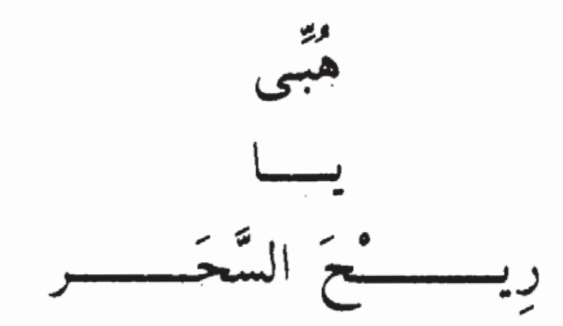


« لو شممت نسيم الأسحار لاستفاق منك قلبك المخمور »

بأبى الليل ما أطيبه وما أعظم قدره عند الله عز وجل فقد أقسم به فى كتابه الكريم والعظيم لا يقسم إلا بعظيم قال تعالى : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ وقال تعالى ﴿ **والضحى والليل إذا سجى** ﴾ وما أطيب السحر ونسيمه ، هذا الوقت المبارك الذى نجّى الله فيه نبيه لوطاً فقال ﴿ **إلا آل لوط نجيناهم بسحر** ﴾ .

● يُروى بإسناد فيه ضعف عن مجاهد عن عطية عن أبى سعيد قال : إن الله عز وجل خلق جنة عدن من ياقوتة حمراء ثم قال لها تزيّنى فتزينت ، ثم قال لها تكلمى ، فقالت : طوبى لمن رضيتَ عنه ، فأطبقَها وعلقها بالعرش فلم يدخلها بعد ذلك إلا الله لا إله غيره يَدْخُلها كل سحر ، فذلك برد السحر . وخرجه الحاكم والبيهقى بإسناد جيد عن مجاهد من قوله مختصرًا وأنشد بعضهم :

تمر الصبا صفحًا بسكان ذى الغضا ... ويصدع قلبى أن يهب هبوبها

قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس حيث حل حبيبها [(١)]

● عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ :

« لن يُنَجّى أحدًا منكم عمله » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته ، سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشىء من الدلجة ، والقصد القصد تبلغوا » [(٢)] .

وفى موضع آخر من البخارى : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحدًا إلا غلبه ، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة » [(٣)]

وهذه الأوقات الثلاثة تكون أوقات السير إلى الله بالطاعات ، وهى آخر الليل وأول النهار وآخره . وقد ذكر الله هذه الأوقات فى قوله تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وسبح**

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص ٦ .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأخرجه البخارى بلفظه فى الرقاق ١٨١/٧ وفيه « برحمة » بدل برحمته .

(٣) أخرجه البخارى بلفظه ولكن أسقط « هذا » من « إن هذا الدين » وزاد لفظ « هذا » فى « ولن يشاد هذا الدين » فى كتاب الإيمان ١٥/١٠ وأخرجه النسائى بلفظه فى كتاب الإيمان .

بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ .

والدُّلجة والإدلاج : سير آخر الليل ، والمراد به هاهنا فى الحديث العمل فى آخر الليل وهو وقت الاستغفار كما قال تعالى ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ .

● وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « **من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إنّ سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة** » [1] .

وسير الدلجة آخر الليل يقطع به سفر الدنيا والآخرة ، ولهذا فى الحديث الذى رواه أنس عن النبى ﷺ « **إذا سافرتم فعليكم بالدُّلجة فإن الأرض تطوى بالليل** » .

وقال بعض الفضلاء :

اصبر على مضض الإدلاج فى السحر ... وفى الرواح على الطاعات والبُكَرَ
لا تضجرن ولا يُعجزك مطلبها ... فالهمّ يتلف بين اليأس والضجر
إنى رأيت وفى الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقَلّ من جدّ فى أمر تطلّبه ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقد روى أن الأشتر دخل على على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد هدأة من الليل وهو قائم يصلى فقال : يا أمير المؤمنين صوم بالنهار وسهر بالليل وتعب فيما بين ذلك ؛ فلما فرغ من صلاته قال : سفر الآخرة طويل فيُحتاج إلى قطعه بسير الليل .

واعلم يا أخى أن مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام ، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب ؛ فلتكن همة طالب الآخرة عالية فإن سلعة الله غالية .

(١) صحيح رواه الترمذى والحاكم فى المستدرك وعبد بن حميد والعقيلى فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى وقال الترمذى هذا حديث حسن غريب وصححه الألبانى انظر صحيح الجامع رقم (٦٠٩٨) .

يا نائماً بالليل كم ترقد قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته وردًا إذا ما هنجع الرُقّد
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد[1]

وللسحر والدعاء فيه والاستغفار شأن عظيم عند الله كما مر بك قول الله تعالى ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ ، وهو أفضل الليل ووقت التنزل الإلهى وقد مربك من الأحاديث فى فضله وفضل قيامه والاستغفار فيه ، ولا يحرمه إلا كل غمر مطرود .

● وروى أنه لما قال أبناء يعقوب له « استغفر لنا » أخّرهم إلى السحر بقوله « سوف أستغفر لكم ربى » .

● وفى الزهد لابن حنبل « إن داود سأل جبريل فقال : يا جبريل أى الليل أفضل ؟ قال : يا داود ما أدرى إلاّ أن العرش يهتز من السّحر .

كيف لا وهو وقت التنزل الإلهى ، ومن أُبعد عنه فقد حرم الخير كله ونقول كما قال بعض السلف « اللهم إن منعتنىْ ثواب الصالحين فلا تحرمنى أجر المصاب على مصيبته » ويقول الآخر « اللهم إن لم ترض عنا فاعف عنا » .

● كان بعض الصالحين يقوم الليل فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : « يا أيها الركب المعرسون ، أكلّ هذا الليل ترقدون ؟ ألا تقومون فترحلون ؟ فإذا سمع الناس صوته وثبوا من فرشهم فيسمع من هنا باك ومن هنا داع ومنْ هنا تال ومن هنا متوضىء ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : « عند الصباح يحمد القوم السرى »[1] .

ولقد مرّ بك دعاء خليفة العبدى إذا دعا فى السحر : « قام البطالون وقمنا إليك ونحن متعرضون لجودك ، فكم من ذى جرم عظيم قد صفحت له عن جرمه ، وكم من ذى كرب عظيم قد فرجت له عن كربه ، وكم من ذى ضر كثير قد كشفت له عن ضره ، فبعزتك ما دعانا إلى مسألتك بعد ما انطوينا عليه من معصيتك إلا الذى

---

(١) لطائف المعارف ص ٤٢ ابن رجب طبع دار الدعوة بالإسكندرية .

عرفنا من جودك وكرمك فأنت المؤمل لكل خير ، والمرجو عند كل نائبة » .

• فى كل الليل تهب الرياح ، ولكن لنسيم السحر خاصّية ما أظنه تعطّر إلا بأنفاس المستغفرين فَلِنَفَس المحب عطر ينم على قدر طيبه .

• قال سعيد بن الحسن : إذا كان من السحر ألا ترى يفوح ريح كل شجر .

• قال سفيان : إن لله ريحًا مخزونة تحت العرش تهب عند الأسحار فتحمل الأنين والاستغفار .

أخى : اقعد على جانب وادى السحرفلعلّ إبل القوم تمربك « منهم تعلمت الحمام النوح والإبل الحنينا » وآسف المتقاعد عنهم ، واحسرة البعيد منهم .

• صحائف التائبين خدودهم ومدادهم دموعهم كما قال بعضهم « إذا بكى الخائفون فقد كاتبوا الله بدموعهم » .

واعجبًا ! رسائل الأسحار تُحمل ولا يدرى بها الفلك ، وأجوبتها ترد إلى الأسرار ولا يعلم بها الملك :

صـحـائـفـنـا إشـارتـنـا وأكثر رسـلـنـا الحرق
لأن الـكـتـب قـد تـقـرا بـغير الـدمـع لا نـثـق

لا تزال القصص تستعرض ، ويوقع بقضاء حوائج أهلها إلى أن يطلع الفجر ، ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأُغفر له ، هل من داع فأجيب دعوته إلى أن ينفجر الفجر فلذلك كانوا يفضلون صلاة آخر الليل على أوله .

نحن الـذين إذا أتـانـا سـائـل نـولـيـه إحـسـانـاً وحُسن تـكـرم
ونقول فى الأسحار هل من تائب مسـتـغـفـر لـيـنـال خير المغنم

الغنيمة تقسم على كل من حضر الوقعة فيعطى منها الرجالة والأجراء والغلمان من الأمراء والأبطال والشجعان والفرسان ؛ فما يطلع فجر الأجر إلا وقد حاز القوم الغنيمة وفازوا بالفخر وحمدوا عند الصباح السرى ، وما عند أهل الغفلة والنوم خبر مما جرى

يا نفس قومى فقد نام الورى إن تصنعى الخير فذو العرش يرى
وأنت يا عين دعى عنك الكرى عند الصباح يحمد القوم السرى[1]

أخى : رياح هذه الأسحار تحمل أنين المذنبين وأنفاس المحبين وقصص التائبين ثم تعود برد الجواب بلا كتاب .

أعلمتمُ أن النسيم إذا سرى حمل الحديث إلى الحبيب كما جرى
جهل الحبيب بأننى فى حبهم سهر الدجى عندى ألذ من الكرى

فإذا ورد بريد السحر يحمل ملطفات الألطاف لم يفهمها غير من كتبت إليه

نسيم صبا نجد متى جئت حاملاً تحيتهم فاطو الحديث عن الركب
ولا تذع السر المصون فإننى أغار على ذكر الأحبة من صحبى

● يا يعقوب الهجر قد هبت ريح يوسف الوصل فلو استنشقت لعدت بعد العمى بصيراً ولو جدت ماكنت لفقده فقيرًا

كان لى عيش أعيش به ضاع منى فى تقلبه
رب فارد ده علىّ فقد عيل صبرى فى تطلبه
وأغثنى مادام بى رمق يا غياث المستغيثين به

● لو قام المذنبون فى الأسحار إلى مولاهم ، وتركوا النوم ، ومالوا إلى الاستغفار ، واشتاقوا إلى موقف نافع وابن عمر « أسحرنا يا نافع ؟ » ومحمد بن واسع وهرم بن حيان وخليفة وعتبة لرقّت منهم القلوب ، وحنّت إلى أيام الصالحين من سلفنا ، واعلم أنك :

● لو شممت رحيق الأسحار لاستفاق منك قلبك المخمور .

يا نائما طول الليل ..

كنت تستطيبُ رياح الأسحار وما تغير المحب عز وجل ، كنت مع الرعيل الأول فما الذى ردّك إلى الساقة .

● يا نائمًا طول الليل ما تحس برد السحر لقد دلت أغاريد الحمام على دنو الفجر ،

---

(١) لطائف المعارف من ٤٢ ـ ٤٣ .

صاح الديك فلم تنتبه ، وأعاد فلم تفق ، فقوى ضرب الجناحين لطماً على غفلتك .

● أرواح الأسحار لا يستنشقها مزكوم غفلة ، إنها لتأتى بألطاف الحبيب ثم تعود فيحاء تطلب رسالة « ألا من مستغفر فأغفر له » .

● لو رأيت رياح الأسحار تحرك أشجار القلوب فتقع ثمار المحبة .

يا لذة خلوّهم بالحبيب ، يا وفور نصيبهم من ذلك النصيب

هبّت رياح وصالهم سحرًا لحدائق الأشواق فى قلبى
واهتز عُود الوصل من طرب وتساقطت ثمر من الحبٍّ
ومضت خيول الهجر سادرة مطرودة بعساكر القرب
وبدت شموس الوصل خارقة بشعاعها لسُرادق الحَجْب
وصفا لنا وقت أضاء به وجه الرضا عن ظلمة العَتْب(١)

● قف فى السحر على أقدام الذل وقل « يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر » .

● من لازم المنام لم ير إلا الأحلام .

● أما تستنشق ريح السحر أما تجد برد الفجر .

يا مطولاً بالقيام مستلذاً بالمنام
قم فقد فاتك يا مغبون أرباح الكرام
وخَلَوْا دونك بالمو لى وفازوا بالمرام
وكذا يسبقك القوم إلى دار السلام

● يا نائماً طول الليل سارت الرفقة ، طلعت شمس التشيب وما انتبهت من الرقدة ، لو قمت وقت السحر رأيت طريق العباد قد غصّ بالزحام ، ولو وردت ماء مدين وجدت عليه أمة من الناس يسقون ، وأسحرة ليل القوم ما أضواها ، قاموا على أقدام التحير ، بين كنّ الحذر ، وشارع الشوق ، سترهم ذيل الليل تحت مخيم الظلام ، إن ناحوا فأشجى من متيم ، وإن ندبوا فأفصح من خنساء .

---

(١) التبصرة جـ٢ ص ٣٢٥ .

سقوا بمياه أعينهم هناك الضال والرَّنْدا
بأنفاس كبرق فى أنين يشبه الرعدا
لاحت لهم الجادة فلما سلكوا قالوا : « ربنا الله » ثم استقاموا.

هيهات منك غبار ذلك الموكب ، أخبارهم أرق من النسيم ، نومهم أعز من الوفاء ، السهر عندهم أحلى من رقدة الفجر ، كلما افتتحوا سورة وجدوا بها وجد يعقوب بقميص يوسف احضُر وقت السحر مع القوم حين تفريق الخلع ، فإن لم تصلح أسهم لك من نصيب « وإذا حضر القسمة أولو القربى » ، لو صعدت عن صدرك صعداء أنفاس الأسف لأثارت سحاباً يقطر من قطريه قطر العفو ، لو أرسلت عبرة من جفن على جفاء أعادت نحس الزلل جُفا.

● أبواب الملوك لا تطرق بالأيدى ، ولا تضرب بالحجر ، بل بنفس المحتاج ، وعُذْرى إقرارى بأن ليس لى عذر ، إذا سارت ركائب الأسحار فابعث معهم رسالة لهف يحتوى على حسرة محصر.

يا سائق العيس ترّفق واستمع منى وبلّغ إن وصلت عنى
عرّض بذكرى عندهم عساهم أن يسمعك سائلوك عنى
قل ذلك المحبوس عن قصدكم معذب القلب فى كل فن
يقول أملت أن أزوركم فى جملة الوفد فخاب ظنى

● يا هذا ، إذا حضر قلبك فنسيم السحر يذكرك ، وإن غاب فمائة ألف نبى لا يوصلون التذكرة إليك

ولى ألف باب قد عرفت سبيله ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

إن لم تكن مع القوم فى السحر ، تلمح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى ، ترى فى صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار « وجوه زهاها الحسن أن تتبرقعا » .

● قاموا جميع الدجى على قدم الاعتذار ، ثم تساندوا إلى رواحل البكاء والاستغفار ، رفعوا رسائل الجوى فعاد جواب الأبرار.

• وآسفي متى رحلوا ؟ ليت شعرى أين نزلوا ؟

• مالت بالقوم ريح السحر ميل الشجرة بالأغصان ، فهزّ منهم الخوف أفنان القلوب ، فانتثرت الأفنان ، فاللسان يتضرع ، والعين تدمع ، والوقت بستان ، خلوتهم بالحبيب تشغلهم عن نعم ونعمان . سورهم أساورهم والخشوع تيجان ، خضوعهم حلاهم فما در ولا مرجان ، أين أنت منهم ، كم بينك وبينهم .

• ريح الأسحار ركابي الرسائل ، ونسيم الفجر ترجمان الجواب .

فياريح الصبا اقترحى على الأحشاء واحتكمى
أراك نَسِمْتِ تختبرين ما عهدى وما ذممى
فهذى فى يدى كبدى وذا فى وجنتىّ دمى

• لسان الدمع أفصح من لسان التائب .

• يا من كان له قلب فانقلب ، يامن كان له وقت مع الله فذهب ، قيام السحر يستوحش لك ، صيام النهار يعاتبك . يا مَن كان قريباً فطُرِد ياعزيزى ما ألفت الشقاء فكيف تصبر .

قلت لليل : كم بصدرك سر أنبئنى ما أروع الأسرار
قال ما ضاء فى ظلامى سر كدموع المنيب فى الأسحار[1]

• أفترى المؤمن إلا مصدق بجواب الليل فهو مسارع مستبق ؟ أم ترى أهل البلاغة إلاّ فى إذاعة لما قال ؟ يستملون الناس :

فاز من سبّح والناس هجوع
يدفن الرغبة ما بين الضلوع
ويغشّيه سكون وخشوع
ذاكراً لله والدمع هموع
سوف يغدو ذلك الدمع شموع

(١) عبد الوهاب عزام ـ ديوان المثانى ص ٣٥ ـ انظر الرقائق لمحمد أحمد الراشد ص ٣٦ .

لـتضيء الـدرب يوم المحشر
سجدة لله عند السحر[1]

ويلقنون المذنبين المخطئين طريق الجنة ، فيستملون المسرف فى أخرى أن عـد إلى الله بقلب خاشع

وادْعى ليلاً بطرف دامع
يتولاك بعفو واسع
ويبدل كل تلك السيئات
حسنات أجرها لن ينفدا
كل هذا العفو للعبد المنيب
سابغاً من خالق الكون الرحيب
للذى تاب إليه من قريب[2]

- أخى : لن تحل فى جوار الجبّار حتى تحل بضائع الأسحار .
- اجلس ليلة على مائدة السحر ، وذق طعم المناجاة تنسيك كل لذة .
- أرواح الأسحار أقوات الأرواح.

لم تثِرْ وجدى حمامات اللوى   بل غرامى علّم الشجو الحماما

- – إذا جن الغاسق حنّ العاشق .

قلوب المحبين جمرة تحت فحمة الليل كلما هبّ عليها نسيم السحر التهبت وأجّج ما فيها من شوق إلى الله عز وجل

أفى نجد تحاورك القبول   أظن الريح تفهم ما تقول
صحبنا فى ديارهم صباها   يناوبها التنفس والنحول
وأمطرنا سحاب الدمع حتى   حسبنا أنها مهج تسيل

---

(١) وليد – فى مجلة التربية الإسلامية ٦٣/٧
(٢) وليد – فى أغانى المعركة ٩٤ . الرقائق ص ٣٦ ، ٣٧ .

وعجبنا ذاهلين فما علمنا أنحن السائلون أم الطلول ؟

• يقول الداعية الكبير الشيخ حسن البنا رحمه الله وتقبله فى عداد الشهداء عنده :

« أمامك كل يوم لحظة بالغداة ، ولحظة بالعشى ، ولحظة فى السحر تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ فتظفر بخير الدنيا والآخرة ، وأمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات وليالى القربات التى وجّهك إليها كتابك الكريم ورسولك العظيم ﷺ فاحرص أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين ، ومن العاملين لا من الخاملين . واغتنم الوقت ، فالوقت كالسيف ، ودع التسويف فلا أضر منه »[1]

• قال سفيان : إن لله ريحًا تسمى الصبحية مخزونة تحت العرش ، تهب عند الأسحار فتحمل الأنين والاستغفار

يا نسيم الريح من كاظمة شدّ ما هجت الأسا والبرحا
الصّبا إن كان لا بد الصّبا إنها كانت لقلبى أروحا
اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قرّبت من نزحا
وارحموا صبا إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

• يا هذا كنت تدّعى حبنا وتؤثر القرب منا ، فما هذا الصبر الذى قد عنّ عنّا .

• « إلهى ما أكثر المُعرض عنك والمعترض عليك ، وما أقلّ المتعرضين لك ، يارُوح القلوب أين طلاّبك ، يانور السموات أين أحبابك ، يارب الأرباب أين عبّادك ، يا مُسَبِّبَ الأسباب أين قصّادك .

مَنْ الذى عاملك بلُبّه فلم يربح ، من الذى جاءك بكربه فلم يفرح ، أى صدر صدر عن بابك ولم يشرح ، من ذا الذى لاذ بجبلك فاشتهى أن يبرح

يا معرضًا عنه إلى مَنْ أعرضت . يا مشغولاً بغيره بِمَنْ تعوضت ؟

مُت على مَنْ غِبْتَ عنه أسفا لست عنه بمصيب خلفا
لن ترى قرة عين أبداً أو ترى نحوهم منصرفا

---

(١) الرقائق ص ١٨ نقلا عن مجلة « الدعوة » فى دورتها الأولى عدد ٨ سنة ١٩٥١ .